بين بلاغة الإقناع

وبـــلاغـــة الإمـــتـــاع

يقوم الخطاب الإقناعي على عناصر و أطراف مهمة تربطها علاقات معقدة : النص ، المتكلم ، المخاطب ، المقام ، ويستلزم ذلك في صاحب العمل الأدبي التحلي بصفة الإقناع بواسطة الخطاب ، وفي هذا الصدد يؤخذ في الاعتبار افترضات من أهمها :

١. أن البلاغة العربية – كباقي البلاغات القديمة – كانت تعالج في أغلب الأحيان نصوصًا وخطابات أدبية يحكمها الوعي والقصد ، فلم يكن البلاغي يهتم بالخطاب الذي يكتفي بذاته ، ولا يعير اهتمامًا لمخاطبه ، ولم تكن البلاغة تعتبر النص كلامًا يهم المتكلم فقط ، أو كلامًا مكتفيًا بذاته ، بل هي تهتم أساسًا بالنص الذي يتوجه للآخرين .

٢. أن البلاغة العربية كانت تؤسس جسور التواصل بين الشعر والخطابة ، بين التخييل والإقناع . وهذا عمل مفيد وثري لم ينل إلا القليل من الاهتمام في الدرس البلاغي المعاصر . . " فالأدب ليس دائمًا خطابًا منغلقًا على ذاته ، وليس له في حد ذاته غائيته الخاصة ، فالاحتكاك بالواقع متعة جمالية خالصة . . والتفكير البلاغي يدفعنا إلى التساؤل : ألا يمكن أن نقرأ الأدب باعتباره حجاجًا ؟ " [١]

و إذا كان الإقناع أبرز إشكالية في عالم اليوم فهو مهم بالدرجة الأولى في بعض الأعمال الأدبية التي تحتاج إلى الحجة والبرهان لإقناع القارىء ، وهذا أمر مهم يدفع المبدع إلى التحلي بثقافة التواصل والإقناع حتى يكتسب خاصية الحجاج

١- الخطاب الإقناعي في البلاغة العربية ، د / حسن المودن ، مراكش ٢٠٠٦ م .

والاستدلال ، مع ملاحظة أن عصرنا الحاضر شهد تحولاً في مفهوم اللغة ، حيث لم تعد مفصولة عن الإنسان ومجتمعه وثقافته وتاريخه .

وخلاصة الأمر أن الخطاب الشعري في ظل بلاغة الإقناع يشترك مع الأسلوب العلمي في خصائص : الوضوح والتدرج ، ويتميز بالسعي نحو تعديل سلوك ومواقف المتلقي معتمدًا في ذلك على استخدام الأدلة والحجج المناسبة ؛ وهنا نشير إلى أهمية النص وما يكمن داخله من قدرات ، فهو قوة خلاقة ينبغي أن يستغلها المبدع ويوظفها في الإقناع والتأثير ، وإلى جانب اللفظ فإن للأشكال الصوتية الموسيقية دورًا في الإقناع النصيّ متمثلة تأثيرات المجاز والتخييل وحجاجية الاستعارة وعلاقتها باللفظ المفرد وبالنظم والتركيب . ولا يظن ظان أن الخطاب الشعري المعتمد على الإقناع يخلو من الإمتاع إذ لا فصل بينهما – والحقيقة أن أي نص تمتزج فيه المتعة بالفائدة ، وبلاغة الإقناع ببلاغة الإمتاع ، إلاَّ أن طبيعة الخطاب الشعري هي التي تجعل تجعل الهيمنة لجانب على الآخر .

بلاغة الإمتاع

أما في بلاغة الإمتاع ، فإن اللغة تأخذ اتجاهًا أسلوبيًا يميل إلى خرق علاقة مألوفة بين الكلمة ودلالتها المعتادة في اللغة الطبيعية ففي قول نزار قباني (راثيا عميد الأدب العربي) :

ارم نظارتيك ما أنت أعمى
إنما نحن جوقة العميان
ما علينا إذا جلسنا بركن
وفتحنا حقائب الأحزان

نرى أن الحقائب تحمل الأشياء المادية ، والعلاقة المألوفة هي بين الحقيبة وما يوضع فيها من ماديات أما أن تصير محملة بالأحزان فهذا خرق للمألوف ، وجنوح باللغة عن طبيعتها ، ومن ثم يحتاج المتلقي إلى تأويل معنى بالنظر إلى السياق العام الذي جاءت فيه كلمة حقائب ، ويسمى ذلك بالانزياح .

والانزياح لغة " التباعد والذهاب " واصطلاحًا هو الفرق بين المألوف في اللغة الطبيعية ، والخروج عنه .

- وقد يكون الانزياح في الموسيقا كقول نزار :

تريدين مثل جميع النساء
كنوز سليمان مثل جميع النساء
وأحواض عطر
وأمشاط عاج
وسرب إماء

تريدين مولى . . يسبح باسمك
كالببغاء
يقول أحبك عند الصباح
ويقول أحبك عند المساء . .
ويقول :
فلست أنا سندباد الفضاء
لأحضر بابل بين يديك
. . و أهرام مصر . .
و إيوان كسرى
وليس لدى سراج علاء
لآتيك بالشمس فوق إناء
أنا عامل من دمشق فقير
رغيفي أغمسه بالدماء . .

القصيدة قائمة على شعر التفعيلة ، وهذا نوع من الإنزياح لأن شكل النص و إيقاعه خرج عن المألوف ، وهو ما يحقق المتعة للمتلقي وقد يتمثل الانزياح على المستوى البلاغي والتركيبي في تقديم ما حقه التأخير ، وعودة الضمير على متأخر ، والالتفات والتكرار . . وكلها أمور تدفع المتلقي إلى التأويل مما يحقق له الإمتاع .

ولنا أن نتأمل بعض النصوص لنرى ما تحقق فيها من إقناع أو إمتاع .